

قانون السكان بين مalthus وماركس مراجعة نقدية

أشارت آراءُ ثوماس روبرت مالثوس Thomas Ropert Mathus،
القسِّ والاقتصادي الإنجليزي (١٧٦٦-١٨٣٤) الكثيرَ من العلماء، من
فروع علمية مختلفة، للبحث في قانون السكان أو في تفصيلات المسألة
السكانية، حتى تألّف من هذه البحوث والدراسات أدبٌ سكانيّ واسع
تناول جوانب هذه المسألة كافة، البيولوجية والجغرافية والاقتصادية
والاجتماعية والسياسية.

وقبل أن نتناول قانون مالثوس الذي أراد له أن يكون نظرية علمية
تفسّر الجوع والفقر اللذين كانت تعاني منهما أعداد كبيرة من البشر في
عصره، وتحدد العلاقة البنائية بين مستقبل البشر المتزايدين وموارد
الأرض المحدودة، لابد من أن نتعرف على الخصائص الرئيسة في
شخصيته بما يتعلق في إعداداته وتكوينه الفكري.

التكوين الثقافي والفكري لمالثوس

١. حياته المبكرة:

ولد مالثوس قرب دوركنك Dorking في الرابع عشر من شباط في
عام ١٧٦٦ في عائلة ثرية، وكان أبوه صديقاً حميماً للفيلسوف العلماني
ديفيد هيوم David Hume، ومؤيداً ومتحمساً لأفكار الكاتب الفرنسي
جان جاك روسو Jean Jacques Roussaw، وقد انعكست هذه الثقافة
التي حصل والده عليها في تربيته البيئية.^(١) وفي العام ١٧٨٤ حصل على

عبد علي الخفاف*

نشر مالثوس مقالته عن السكّان دون أن يضع عليها اسمه خشية ردود الأفعال الشديدة والعنيفة ضده من قبل رجال الدين. تضمنت هذه المقالة حقيقة عجز تطمين حاجات أعداد السكان المتزايدين بشكل سريع، وحسب متوالية هندسية، في الوقت الذي تحصل فيه زيادة إنتاج الطعام بمتوالية حسابية

٢. مقالته عن السكان:

نشر مالثوس مقالته عن السكان لأول مرة وكانت بعنوان «مقالة حول مبدأ السكان وتأثيراته حول إمكان تحقيق رفاه المجتمع مستقبلاً مع ملاحظات حول تكهنات السيد جدوين والسيد كوندورسيه وكتاب آخرين»

An Essay on the Principle of population as it improvement of society with Remarks on the Speculation of Mr. Godwin and Mr. Condorcet, and other writers

يبدو أنه قد نشرها دون أن يضع عليها اسمه خشية ردود الأفعال الشديدة والعنيفة ضده من قبل رجال الدين. تضمنت هذه المقالة حقيقة عجز تطمين حاجات أعداد السكان المتزايدين بشكل سريع، وحسب متوالية هندسية، في الوقت الذي تحصل فيه زيادة إنتاج الطعام بمتوالية حسابية. لقد ختم كراسته بجملة أخيرة هي: «يجب على كلّ قارئ منصف أن

قبول في كلية الدين في جامعة كامبردج ودرس فيها العديد من الموضوعات، ونال جوائز تقديرية لتفوقه الملحوظ في الأدب اللاتيني والفلسفة الإغريقية وتخرج من الجامعة في ١٧٨٨. وقد حصل على شهادة الماجستير في الأدب عام ١٧٩٣، وبعد ذلك استطاع أن يحصل على عضوية الكنيسة قسيساً في العام ١٧٩٧. (٢) لقد ألف مالثوس كتيباً صغيراً بعنوان «الأزمة» لم يطبع ولم ينشر، ناقش فيه القوانين التي شرعت لمساعدة العوائل الفقيرة (٣)، ويبدو أن وجهات النظر التي طرحها في هذا الكتيب كانت بمثابة الأساس النظري الذي بنى عليه فرضياته التي نشرها بعد عامين من ذلك التاريخ.

يبدو أن أفكار مالثوس جاءت كردّ فعل لأفكار والده التي اتسمت بالنظرة المتفائلة لأفكار الثورة الفرنسية التي بدأت تنتشر في القارة الأوروبية، كما أن أفكار الفيلسوف الراديكالي الإنجليزي وليم جدوين William Godwin قد ضايقته كثيراً، وهي أفكار رومانسية متفائلة انتشرت على أثر نشر كتابه «العدالة السياسية» في العام ١٧٩٣، طرحت أفكار هذا الفيلسوف الآمال الواسعة في تحقيق الرفاه والسعادة لملايين الناس في المستقبل، وتحقيق مجتمع من دون قيود وقوانين وسلطات تحدد من حريته. (٤) امتعض مالثوس كثيراً من هذه الأفكار المتفائلة واعتبرها أدباً رومانسياً لا يمتّ إلى الواقع بصلة، إنه وقع تحت تأثير الظروف الاقتصادية الاجتماعية الصعبة التي كانت تعيشها جماهير الشعب الإنجليزي حينذاك.

يعترف بأن الموضوع العلمي الذي كان يستحق الاهتمام والرعاية الذي دار في خلد المؤلف هو تحسين وضع الطبقات الفقيرة في المجتمع وزيادة سعادتها.^(٥)

أعاد مalthus نشر هذه المقالة في كتاب تناول فيه الكثير من التفصيلات وذلك في العام ١٨٠٣. وقد جاءت هذه التفصيلات إثر قراءاته الكثيرة في مجال الأدب الاقتصادي وأدبيات السكان وبعد ملاحظاته الشخصية التي تجمعت لديه بعد زيارته الى ألمانيا والسويد والنرويج وفنلندة وروسيا وفرنسا وسويسرا في الفترة الممتدة ما بين (١٧٩٨-١٨٠٣).^(٦) تضمنت هذه الطبعة الكثير من البيانات الجديدة والمخططات وقد ذكر فيها التطور الذي حصل في موقفه، من موقف هجومى انفعالي إلى موقف موضوعي علمي، لقد كتب في هذه الطبعة قائلاً «ابتعدت كثيراً في هذا الكتاب عن المبدأ الذي سبق أن عرضته في الكتاب السابق مفترضاً إمكانية وجود قيد آخر لزيادة السكان لا يتعلق بالزديلة، وهو الامتناع عن الزواج سواء كان بصورة مؤقتة أم بصورة دائمة على أن لا يكون هذا الامتناع مصحوباً بالزديلة»^(٧)، وقد تولى إعادة طبع هذا الكتاب عدة مرات حتى بلغ الطبعة السادسة في العام ١٨٢٦. وقد اختصر مalthus عنوان كتابه في الطبعة الثانية إلى:

بحث في أصول السكان أو نظرة في آثارها في الماضي والحاضر في سعادة الناس

An Essay on the Principle of population of a view of its past and present affects on human happiness.

(8)

لقد اتسعت سمعة مalthus بكتابه هذا لتصل إلى جميع أرجاء القارة الأوروبية.

٣. حياته في هلييري وشهرته العالمية:

تزوج مalthus في العام ١٨٠٤ من هاريت ايكرسال Hareiet Eckersall، وفي عام ١٨٠٥ أصبح أستاذاً للتاريخ وللإقتصاد السياسي في كلية شركة الهند الشرقية في هيلبري Haileybury في هيرتفورد شاير Hertfordshire، وبهذا تستعمل لأول مرة كلمة الإقتصاد السياسي في دائرة أكاديمية في بريطانيا. لقد قضى بقية عمره في هدوء وسكينة هنا ولم يسافر سوى رحلات محدودة، إلى أيرلندة عام ١٨١٧ ورحلة راحة ونزهة إلى بعض جهات أوربا عام ١٨٢٥، ولابد من الإشارة إلى تعرفه بالإقتصادي الشهير ديفيد ريكاردو وصداقته له.

وإلى جانب كتابه الشهير، السالف الذكر، نشر خمسة كتب في إطار الاهتمام بالموضوعات الاقتصادية الاجتماعية وهي:

١- بعض ملاحظات على آثار قانون الغلال عام ١٨١٤.

المذهب الذي أطلق عليه في الفكر الاقتصادي المدرسة التجارية، قد ربط السكان وموضوعات السكان بالإقتصاد استناداً الى الأساس الذي يرى أن زيادة ثروة الدولة وجعل الدولة ثرية ومن ثم قوية يستلزم أن تكون لها أراض واسعة وممتلكات وراء البحار وجيش قوي وهذا يتطلب عدداً كبيراً من السكان

وإعدادة، فكما أشرنا فهو عاش في بيت ثري ومع والد له أصدقاء هم من كبار مفكري فرنسا وانكلترا، وكان والده معجباً بالآراء الفلسفية المتفائلة في مستقبل البشرية وكان معروفاً عنه إعلان هذا الإعجاب على كل من حوله ومن بينهم ابنه.^(١٠) إلى جانب التربة الأسرية كان لإعدادة الجامعي ودراسته للدين والفلسفة والاقتصاد والتاريخ وشغفه بالرياضيات، كبير الأثر في جعله باحثاً موسوعياً المعرفة، وقد ساعدته هذه الموسوعية على معرفة الكثير من خصائص التاريخ والطبيعة البيولوجية والاجتماعية للإنسان مما أهله لأن يقدم فرضياته في السكان التي أراد لها أن تكون نظرية.^(١١) وكان للبيئة الفكرية التي كانت تنتشر عبر تياراتها بسرعة في أرجاء أوروبا دورها الكبير أيضاً، وكانت من بين هذه التيارات أفكار المتفائلين في مستقبل أفضل أمثال سوسميلش وكوندروسيه وجدوين وغيرهم.

إلى جانب كل ما تقدم كان للمذهب التجاري Mercantilism، وهو النظام الذي كان سائداً في الغرب الأوربي، دوره في توجيه الاهتمام بموضوع السكان، فهذا المذهب الذي أطلق عليه في الفكر الاقتصادي المدرسة التجارية، قد ربط السكان وموضوعات السكان بالاقتصاد استناداً إلى الأساس الذي يرى أن زيادة ثروة الدولة وجعل الدولة ثرية ومن ثم قوة يستلزم أن تكون لها أراض واسعة وممتلكات وراء البحار وجيش قوي وهذا يتطلب عدداً كبيراً من السكان.^(١٢) على هذا الأساس رحب معتنقو هذا المذهب وهذه المدرسة بجميع الوسائل التي تعمل على زيادة عدد السكان فهم

٢- العائد الزراعي عام ١٨١٥.

٣- بحث في قانون الفقراء عام ١٨١٧.

٤- مبادئ الاقتصاد السياسي من خلال تطبيقاتها العملية عام ١٨١٩.

٥- تعاريف الاقتصاد السياسي عام ١٨٢٧.

واختير مالثوس عضواً في الجمعية الملكية عام ١٨١٩ وأصبح عضواً في جمعية الاقتصاد السياسي، إلى جانب ريكاردو وجيمس مل عام ١٨٢١. وفي عام ١٨٢٤ تم اختياره واحداً من عشرة أعضاء ارتباط للجمعية الملكية للأدب، وفي عام ١٨٣٤ أصبح عضواً في الهيئة الإدارية للجمعية الإحصائية في لندن. وخارج بريطانيا تم اختياره عضواً من قبل أكاديمية العلوم السياسية الفرنسية وأكاديمية العلوم في برلين عام ١٨٣٣. وقد كتب إلى جانب الكتب الخمسة التي أشرنا إليها بعض المقالات، وأخيراً توفي في الثالث والعشرين من كانون الأول من عام ١٨٣٤ ودفن في كنيسة أبيي في مدينة باث.^(٩)

٤. الخصائص الرئيسة لثقافته:

من الاستعراض السابق لحياة مالثوس نخلص إلى أن التنشئة الأسرية كانت من بين أقوى العوامل في تكوينه

جاءت أفكاره على نقيض ما آمن به والده من أفكار متفائلة كما أنها كانت أفكار بعيدة عن كونه رجل دين وعن إعدادة أستاذاً في كلية للدراسات الدينية

حاول مalthus أن يستفيد من معطيات دراسته الدينية والتأريخية والاقتصادية في تفسير ظاهرة نمو السكان ومسألة التوازن بين هذا النمو السكاني وموارد الأرض وإنتاج الغذاء

رفاهيته.^(١٤)

هذه هي جملة العوامل والأسباب التي عملت على تكوين شخصية مalthus الفكرية وإعدادة ثقافياً وعلمياً، وهي عوامل أسرية وتعليمية، تمثلت بدراسته في كلية الدين في جامعة كامبردج، وخارجية تتلخص، كما أشرنا بتيارات الثقافة والفكر التي انتشرت في بريطانيا وأوروبا عموماً.

٥. التناقض في ما قرأه مalthus وما رآه:

إن جملة الأفكار الداعية إلى التشجيع على التكاثر وزيادة السكان جعلت مalthus في موقف متناقض أمام سوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعاني منها شغيلة الشعب الإنجليزي. لقد بدأت ملامح سوء هذه الأوضاع أثر الثورة الصناعية منذ أواخر القرن السابع عشر حيث أضطر العمال في أوائل القرن الثامن عشر إلى العمل ساعات طويلة بأجر حدي، أي أجر لا يكفي سوى لشراء الخبز. ولم تكن للعمال نقابات تدافع عنهم وعن حقوق النساء والأطفال الذين اضطروا للعمل لعدم كفاية الأجور التي يحصل عليها أولياء أمورهم، وقد استغل الرأسماليون وأصحاب الأعمال هذه الظروف بصورة أدت إلى انتشار الفقر والبؤس.^(١٥)

يرون في هذه الزيادة فوائد اقتصادية وعسكرية وسياسية، كما أنهم حرصوا على توجيه الزيادة في السكان إلى إنتاج السلع والأدوات التي يمكن أن تباع خارج البلاد مقابل الذهب والفضة، وباختصار شديد فإن زيادة عدد السكان من وجهة نظر أصحاب هذه المدرسة، المدرسة التجارية، تعني زيادة حصيلة الدولة وتقليل نفقات الإنتاج عن طريق خفض الأجور.

ومن جملة التيارات الفكرية التي بدأت تنتشر حينذاك هو موضوع التغير الاجتماعي، فقد بدأت تتطور مفاهيم التغير فبعد ما كان الاعتقاد سائداً أن الإنسان ألعوبة في يد القدر وأن التغير الاجتماعي لا يحصل إلا بحركة بطيئة جداً فإن الثورة الفرنسية وما طرحته من شعارات دفعت رجال الفكر إلى التأمل في مستقبل البشرية وما يستطيع الإنسان أن يستخلصه منه. ويمكن القول بصورة عامة إن فكرة التقدم البشري كانت حينذاك بصدد أن تصبح مفهوماً له معناه.^(١٦) فضلاً على ذلك كانت مبادئ القوانين الطبيعية في طريقها إلى أن تعرف ويستكشف المزيد منها بما أشاع الاعتقاد بين الناس بأن تطور العلم واكتشاف القوانين الطبيعية سوف يتسبب في زيادة إنتاج الإنسان للثروة وبالتالي تزيد رفاهيته. وشاع الاعتقاد بين بعض الناس بأن القوانين الطبيعية التي تنظم العالم المادي قد تعمل أيضاً على تنظيم السلوك البشري. واعتقد بعض من المفكرين أن ما من قانون طبيعي يحد من قدرة الإنسان على تحسين ظروف حياته وتطويرها. لقد اعتقدوا أن بإمكان الإنسان أن يوظف القوانين الطبيعية بهدف تطوير حياته وتحسين إنتاجه وزيادة

ومن هنا ربط مالثوس ما بين البؤس والزيادة من جانب وزيادة أعداد السكان من جانب آخر.

٥-١. التقاطع الفكري بين مالثوس ووالده:

تفيد المراجعة للمقالة الأولى التي نشرها مالثوس عام ١٧٩٨ أنها كانت بمثابة محصلة للمناقشات والجدل الذي حصل بينه وبين والده بصدد إمكان إصلاحات معينة دعى إليها كل من جودوين وكوندروسيه توصل البشر إلى تحقيق الرفاه والسعادة.^(١٦) ولعله كانت تلك المقالة وليدة لتلك المناقشات. إن ما يقرب من ثلثين صفحات الطبعة الأولى من المقالة كانت مخصصةاً لمناقشة فلسفية تناولت الأفكار التي وصفها بالخيالية (اليوتوبيا) ولا تتصل بمبدئه في السكان إلا بصورة غير مباشرة.^(١٧)

بشكل عام جاءت أفكاره على نقیض ما آمن به والده من أفكار متفائلة كما أنها كانت أفكار بعيدة عن كونه رجل دين وعن إعداده أستاذاً في كلية للدراسات الدينية. من الصعب التوفيق بين ما طرحه من أفكار تشاؤمية في ختام مقالته

وبين الفكرة المسيحية التي تقول إن العالم يقع تحت سيطرة إله رؤوف رحيم، من ذلك جاء اتهام زملائه من رجال الدين له بنشره كتاباً ضد الدين.^(١٨)

٥-٢. الرغبة في الاستفادة من الرياضيات:

لقد اختلف الباحثون الذين درسوا مالثوس وحاولوا معرفة الأهداف التي وضعها لجملة آرائه، فقد رأى بعض من هؤلاء أن الدافع الرئيس لمالثوس كان حب الظهور، بينما رأى آخرون أن هدفهم كان البحث عن حلول جديدة للمشكلات المتصلة بالسكان ونمو السكان وتزايد أعدادهم بسرعة، بينما رأى بعض ثالث أنه يبحث عن مجد سياسي وجاء هذا الاعتقاد إثر مهاجمة لسياسة وليم بت William Pitt رئيس وزراء بريطانيا حينذاك.^(١٩) من مراجعتنا ودراستنا لمقالته ومتابعتنا ما طرأ عليها من تطوير على مدى الطبقات التالية للطبعة الأولى لها، نرى أنه حاول أن يستفيد من معطيات دراسته الدينية والتاريخية والاقتصادية في تفسير ظاهرة نمو السكان ومسألة التوازن بين هذا النمو

السكاني وموارد الأرض وإنتاج الغذاء. لقد حاول الاستفادة من الرياضيات في تحديد مرتكزات فرضياته. وتعدّ هذه من المحاولات الأولى في اعتماد المعطيات الرياضية في الدراسات الاجتماعية ولعلها كانت من المحاولات القليلة

التي تطورت عنها نزعَة إسقاط منهج العلوم الطبيعية وقوانينها في الدراسات الاجتماعية.^(٢٠)

إن استعراضنا لحياة مالثوس وتربيته الأسرية ومعرفتنا بمسيرة أعداده وتكوينه ثقافياً وفكرياً لا شك

ناقش المهتمون بآراء مالثوس وفرضياته في السكان هذه الآراء والفرضيات بكل تفصيلاتها سواء أكانوا من المؤيدين لوجهات نظره أم من المخالفين لها، ونحن بدورنا بعد اطلاعنا على النص الأخير الذي يمثل أنضج أفكاره قدمنا خلاصة لبعض نواحي القصور في بناء فرضياته

هزم تفاؤل ماركس تشاؤم مalthus،
فالتطور التكنولوجي اليوم جعل من موارد
العالم واكتشافها أمراً غير محدود
وبالتالي يرى البعض من الباحثين بسقوط
نظرية مalthus

حضرية سلبية). والموانع الوقائية أو الأخلاقية وهي التي تعمل على تحديد معدلات الولادات مثل العفة والرهبة والزهد أو تأخير الزواج، وقد عقب على أن هذه الموانع قد لا تكفي وحدها لموازنة أعداد السكان مع الموارد الغذائية بفعل أن كبح جماح الشهوات ليس بالمهمة الهينة.^(٢٤)

تأسيساً على ما تقدم توصل مalthus إلى سياسة سكانية تستند إلى الحد من نمو السكان بواسطة الموانع الأخلاقية إلى جانب الموانع الإيجابية بهدف تحقيق التوازن بين أعداد السكان وموارد الغذاء.^(٢٥) يشير جميع الباحثين الذين درسوا مalthus إلى تراجع واضح في الطبقات اللاحقة التي تلت الطبعة الأولى لمقالته، وقد جاء عنوان الطبعة الثانية الذي اعتمده في طبعاته اللاحقة بالصيغة الآتية: مقال عن مبدأ السكان، رأى في آثاره الماضية والحاضرة في الرفاهية البشرية مع بحث فيما نتوقه بصدد ما يحدث في المستقبل في إزالة أو تخفيف الشرور التي يسببها.^(٢٦) ناقش المهتمون بآراء مalthus وفرضياته في السكان هذه الآراء والفرضيات بكل تفصيلاتها سواء أكانوا من المؤيدين لوجهات نظره أم من المخالفين لها، ونحن بدورنا بعد اطلاعنا على

سوف يوضح لنا الخلفية لنظريته ويسهل علينا الفهم الدقيق لمحاولاته.

مبدأ مalthus في السكان:

يستند مبدأ مalthus في السكان إلى فرضيتين أساسيتين هما:

- ١- الغذاء ضروري للإنسان ولا استمرار وجوده.
- ٢- العاطفة بين الجنسين ضرورية وسوف تظل في حالتها الراهنة تقريباً.

لقد ركز في مقالته الأولى على حقيقة أن قدرة السكان على التكاثر هي أعظم بدرجة لا متناهية من قدرة الأرض على إنتاج وسائل العيش للإنسان. ويزيد السكان بنسبة هندسية إذا لم يحد من الزيادة ولا تزيد وسائل العيش إلا بنسبة حسابية، وأن المعرفة الطفيفة بالأعداد لتبين ضخامة القوة الأولى بالمقارنة مع القوة الثانية^(٢١). والنسب التي كانت في ذهن مalthus هي: - تزايد السكان ١-٢-٤-٨-١٦-٣٢-٦٤، أما تزايد الطعام فهو ١-٢-٣-٤-٥-٦-٧.

وبناء على ذلك فإن السكان يتزايدون ٦٤ مرة في حين لا يزيد الغذاء سوى بمقدار ٧ مرات على ما كان عليه خلال ١٥٠ عاماً. وهو يرى أن هاتين القوتين غير المتعادلتين لابد من أن يوجها نحو التعادل^(٢٢)، وذلك عبر تنشيط ما سماها الموانع الإيجابية، وهي الأسباب التي تقضي على الحياة^(٢٣)، ومن بينها الوباء والحرب والصناعات غير الصحيحة والعادات الفاسدة والمدن الكبيرة (ويقصد منه تلوث هذه المدن مما ينتج عنه بيئة

التي تعد منهجاً في الفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي. تستند الماركسية إلى نظرية فائض القيمة الذي ينتج عن طريق العمل على الشيء، من القطن في الحقل إلى قماش فاخر، إنه الفرق القيمي في ما بين قوة العمل والعمل المنجز، وهو الذي يشكل الأساس لرأس المال. وبفعل آليات الإنتاج الرأسمالي ينقسم المجتمع الى طبقات تنتظم علاقاتها بصيغ الصراع (الصراع الطبقي) ويستمر هذا الصراع حتى تتحول ملكية وسائل الإنتاج إلى المجتمع. وهذا التحول لابد من أن يحصل مع التطور الاقتصادي الاجتماعي المطرد، ويمكن أن يحصل بأسلوب الثورة التي تعجل وتختصر الزمن الطويل المطلوب للتحول.^(٢٩)

الحركة الشيوعية:

صاغ ماركس وزميله انجلز البيان الشيوعي بعد أن آمن كلاهما بإمكانية التسريع في المجتمع الاشتراكي عبر أسلوب الثورة وعدم انتظار التحول التاريخي السلمي.^(٣٠)

لا قانونَ عاماً للسكان:

لم يعتقد ماركس وجود قانون عام للسكان وإن وجدت قوانين سكانية فهي ترتبط عضوياً بالقوانين العامة التي تحكم التطور الاقتصادي الاجتماعي والسياسي للمجتمع، وبذلك فإن لكل مجتمع قوانين سكانية خاصة به هي محصلة لظروفه الموضوعية.

ويلخص الباحثون الخصائص الرئيسة للفكر السكاني عند ماركس بما يلي:

١- لا يشكل نمو السكان العامل في تطور المجتمع ولا القوة التي تحدد شكل النظام الاجتماعي

إن متابعتنا المتواصلة لأدبيات السكان وبشكل خاص الأدبيات التي طرحها مalthus في طبعاته المتعددة لمقالته "مبدأ في السكان" هيأت لنا الخلفية التي تساعدنا في تحديد بعض نواحي القصور في فرضياته التي أراد لها أن تكون نظرية

النص الأخير الذي يمثل أنضج أفكاره قدمنا خلاصة لبعض نواحي القصور في بناء فرضياته.^(٢٧)
كان من بين المفكرين النقاد لأفكار مalthus المفكر والاقتصادي الكبير كارل ماركس.

كارل ماركس Karl Marx:

ولد هذا الفيلسوف والاقتصادي الألماني في ١٥ مايس في عام ١٨١٨ في مدينة ترير في ولاية رينانيا الألمانية، وفي عام ١٨٣٣ ألتحق بجامعة بون لدراسة القانون، إلا أن ميوله كانت لدراسة الفلسفة رغم معارضة والده الذي أراد له أن يصبح محامياً. قدم أطروحته للدكتوراه في الفلسفة عام ١٨٤٠. عاش، كما هو واضح، في القرن التاسع عشر في فترة اتسمت بنمو الرأسمالية الصناعية وانتشارها وتشكيل الطبقات العمالية في بلدان أوروبا وتنامي أولى صراعاتها الكبرى.

رأس المال:

ألّف ماركس كتابه الشهير «رأس المال» في ثلاثة أجزاء وقد نشره زميله انجلز Englis عام ١٨٥٥ بعد وفاته. وقد طرح فيه المبادئ الأساسية للماركسية

فليس المهم صياغة القوانين التي تعمل على رفع أو خفض متوسط الخصوبة بل المهم هو تحديد العلاقات الاجتماعية، أي الاهتمام بالبنية التحتية.^(٣١)

بذلك تصدى ماركس لمalthus وأثبت علمياً أن خبرات العالم مرهونة بقدرة ونشاط الإنسان نفسه وبتطور أدوات الإنتاج بمعنى (التكنولوجيا - العلم - البشر)، وبالتالي فإن المشكلة لا تتعلق بمحدودية الموارد الطبيعية بل في استحواذ طبقة معينة بما يتسبب في تفاوت واسع في توزيع الثروة الاجتماعية. لقد هزم تفاؤل ماركس تشاؤم مalthus، فالتطور التكنولوجي اليوم جعل من موارد العالم واكتشافها أمراً غير محدود وبالتالي يرى البعض من الباحثين بسقوط نظرية مalthus.

لم يقتصر «إنكار المشكلة السكانية» على ماركس وإنما أنكر ذلك الكتاب الاشتراكيون كافة رغم وجود بعض الاختلافات في مواقفهم وتحليلاتهم طوال القرن التاسع عشر، فهم يرون حصول مثل هذه المشكلة يكون بسبب خلل في العملية الإنتاجية بصفة عامة وفي علاقات الإنتاج بصفة خاصة، وإنها سوف تحل خلال عملية إعادة تنظيم المجتمع، والحقيقة إن التفاؤل لم يقتصر على مذاهب الفكر الاشتراكي بل اتسع ليشمل غالبية النظريات الاجتماعية سواء تلك التي تدعو إلى الاشتراكية أم التي لا تدعو إلى الاشتراكية.^(٣٢)

النظريات الاجتماعية التي ظهرت كانت في الغالب متفائلة واستندت إلى مبدأ عام بالنسبة للمسألة السكانية هو: أن زيادة عدد الأفراد هي أساس للتقدم وأن التطور

وطابعه، فالسكان ونموهم وتكاثرهم عوامل ضرورية وشروط مهمة بين شروط الحياة المادية للمجتمع تساعد أما على تسارع تطوره الاقتصادي والاجتماعي أو إبطائه.

٢- لا يوجد قانون طبيعي وكلي ثابت للسكان دائماً فلكل عصر ولكل مجتمع قانون للسكان خاص به ينتج عن الظروف الخاصة السائدة فيه والقانون الطبيعي والكلي للسكان لا يوجد إلا في عالم النبات والحيوان وبوجه عام لا يوجد إلا في مجتمع لا يتأثر بإرادة الإنسان (المجتمعات البدائية).

٣- لا يعود سبب الفقر والبؤس إلى الزيادة في عدد السكان بل إلى طبيعة النظام الاقتصادي.

٤- رفض نظرية الحد الأمثل للسكان.

٥- تدخل السياسات العامة للدولة تجاه السكان والأخلاق والقيم الاجتماعية، التي تطبع السلوك الاجتماعي بسمات معينة، في نطاق البنية الفوقية التي تتبدل بتبدل الظروف الموضوعية، وبذلك

كان حرياً بمalthus وهو يحاول الإجابة على كيفية تحقيق السعادة والرفاه للبشر أن يعتمد على منهج اقتصادي ويبحث في العوامل الاقتصادية المحددة لمستوى المعيشة وأحوال السكان، ويستند في كشف التغيرات إلى التاريخ لتحديد بعض المراحل في خصائص متميزة

الكمي للمجتمعات يكون مصحوباً بشروط كمالها وصلاحيها، وقد أكد هذه الفكرة سلفاً أوغست كومت August Comte وتبناها بشئ من الدقة والتفصيل أتباعه من بعده. (٣٣)

مالثوس وماركس والباحث:

إن متابعتنا المتواصلة لأدبيات السكان وبشكل خاص الأدبيات التي طرحها مالثوس في طبعته المتعددة لمقالته «مبدأ في السكان» هيأت لنا الخلفية التي تساعدنا في تحديد بعض نواحي القصور في فرضياته التي أراد لها أن تكون نظرية وهي: ضعف المفاهيم العلمية:

لكل نظرية مجموعة من المفاهيم المحددة التي تعتمد عليها، وهنا لا نريد أن نأخذ عليه عدم الدقة في المفاهيم الديموغرافية الواردة في فرضياته، إذ أن النضج العلمي الذي حدد هذه المفاهيم حصل بعد تراكم المعرفة على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين، إلا أنه مما يؤخذ عليه، على سبيل المثال، أنه يذكر الغذاء عاملاً يحد من نمو السكان ويذكر مرة أخرى وسائل العيش بدل الغذاء، ويبدو أنه يقصد من وسائل العيش، وهو ما اعتمده في مقالاته الأخيرة، مستوى المعيشة. قلة البيانات السكانية التي اعتمدها كانت من بين

وفي جملة واحدة نقول لمالثوس أن جغرافية الجوع، لا في أيامه ولا في الوقت الحاضر، تقتزن بجغرافية الكثافات العالية للسكان

النواقص التي أشار إليها معظم النقاد، وهي فعلاً سبب في عدم الحصول على معلومات وافية وهو ما تفرضه مثل هذه العمومية التي أراد أن يحققها مالثوس في مبدئه السكاني أو نظريته كما أراد لها أن تكون.

وقلة البيانات هي في الواقع القضية التي تخرج عن أرادته إذ لم تتوفر هذه البيانات أو كل ما يمكن أن يعينه في دراسته حينذاك، فهو لم يحصل إلا على معدلات الوفيات والولادات في كل من النرويج والسويد وبريطانية وبعض المؤشرات لها في روسيا وبعض جهات ألمانيا وفرنسا.

اعتماده على التجريد الرياضي في حساب السكان ونمو إنتاج الغذاء فقد لخص الفارق بينهما بمعادلتيه الهندسية والحسابية وأعتبر ذلك نسقاً ثابتاً للنمو، والمعروف أن إنتاج الغذاء والإنتاج الزراعي عموماً يعتمد على عدة أسباب طبيعية واقتصادية واجتماعية وبذلك فهو إنتاج يتباين من مكان إلى آخر ومن وقت إلى آخر.

أهمل أساليب منع الحمل رغم ممارستها في أيامه حيث بدأ التوجه لاستخدامها في ١٧٥٠ في فرنسا وعلى نطاق محدود، وكان مالثوس على علم بذلك. وفي بريطانية حصلت الدعوات القوية لاستخدام هذه الوسائل منذ عام ١٨٢٠ من جانب فرانسيس بيكون وبعض المفكرين الآخرين، ويرى بعض النقاد إهماله هذا يعود إلى:

اعتبار أساليب منع الحمل أساليب منافية للأخلاق وعملاً غير طبعي فأدرجها ضمن الرذائل. أو اعتبرها ذات تأثير محدود في الحد من نمو السكان. ويميل

إن مالثوس الذي اعتقد أنه بحث في سعادة الناس وفي خير الناس قد استغلّت آراؤه بأسلوب سلبي ومن بين هذه الآراء دعوته الحكومة البريطانية إلى منع معونة الأسر الفقيرة، فاعتمدت مبرراً لعمليات تعقيم الهنود والسود في أمريكا الشمالية، ومبرراً للحروب والحروب بالنيابة التي عرفها العالم في القرن العشرين وحتى الوقت الحاضر

أما بالنسبة إلى ماركس فيبدو أن بعض النقاد قد خلط ما بين موقف ماركس من عامل السكان أي الظاهرة السكانية (الديموغرافية) والمشكلة السكانية التي تتمثل، في الغالب، بنمو السكان السريع والمطرّد:

فماركس يعد أن السكان ونموهم عامل ضروري وشرط مهم بين شروط الحياة المادية للمجتمع يساعد إما على تسارع تطوره الاقتصادي الاجتماعي أو على إبطائه.

وكما يرى ماركس فعلاً لا يوجد قانون عام واحد يحكم المجتمعات البشرية في سلوكها الديموغرافي كما اعتقد مالثوس، فنحن اليوم نرى سلوكيات ديموغرافية وآليات مختلفة تتمثل بخراط تباين معدلات المواليد ومعدلات الوفيات ووفيات الأطفال الرضع ومتوسط عمر الإنسان وغيرها في العالم.

وبصدد إنكار ماركس لدور الزيادة العددية المطردة للسكان في زيادة الفقر والبؤس فأنا لا أقدر إلا أن أفهمه موقفاً من قبيل محاربة أفكار مالثوس التي وصفها

غالبية النقاد إلى السبب الأول ونحن نتفق مع هذه الغالبية ولربما يعود ذلك إلى كونه من رجال الدين وما أراد أن يخرج على الكنيسة ويتهم بموقف مضاد.

قلل كثيراً من دور الهجرة في التغير السكاني فالبلد المهاجر منه ستكون الهجرة فيه حافزاً للزواج المبكر ولزيادة عدد الأطفال ولم ينتبه إلى دور الهجرة في تغير هرم السكان أو فقدان الشباب الذين يعدون قوة العمل البشرية.

إن أدبياته التي نشرها وأراد لها أن تكون نظرية تفتقر إلى المنهج العلمي الواضح فهو مرة يعتمد على قانون التكاثر الطبيعي البايولوجي وأخرى يحاول الاستفادة من المنهج التاريخي وثالثة يركز على بعض قوانين الاقتصاد في نقاشه الإنتاج الزراعي وتحقيق مستوى المعيشة.

إن تحقيق نظرية علمية يستلزم الركون إلى منهج علمي دقيق واعتماد مفاهيم علمية محددة. لقد كان حرباً بمالثوس وهو يحاول الإجابة على كيفية تحقيق السعادة والرفاه للبشر أن يعتمد على منهج اقتصادي ويبحث في العوامل الاقتصادية المحددة لمستوى المعيشة وأحوال السكان، ويستند في كشف التغيرات إلى التاريخ لتحديد بعض المراحل في خصائص متميزة، وهو على هذا الأساس يمكنه الاعتماد على منهج التاريخ الاقتصادي على وجه الدقة. وباختصار فإن مالثوس قد تطرف في اعتباره نمو السكان العامل الوحيد للفقر والبؤس.

وفي جملة واحدة نقول لمالثوس أن جغرافية الجوع، لا في أيامه ولا في الوقت الحاضر، تقترب بجغرافية الكثافات العالية للسكان.

وهو ما يطمح إليه ماركس، فهل تختفي خرائط تباين الكثافات السكانية؟ وتختفي المناطق الثلاث التي أشرنا إليها؟ ولماذا تختفي وكيف؟

على كل حال نحن نرى أن مalthus قد تطرف كثيراً عندما اعتبر «مبدأ السكان» هو السبب الوحيد في وجود الفقر والبؤس. ونرى أن ماركس هو الآخر قد تطرف عندما أهمل دور العدد السكاني في الفقر والبؤس، صحيح أن العدد السكاني متغير تابع للواقع الاقتصادي الاجتماعي إلا أنه فيما بعد يأخذ دوره في أضعاف خطط التنمية وهذا ما تؤشره تجارب البلدان النامية. إن الفشل الذريع الذي لحق بتجارب البلدان النامية وخططها للتنمية جاء فرصة لتأكيد المalthusيين الجدد أهمية

فرضياتهم في منهج يطلق عليه «المalthusية الجديدة Neo-Malthusian» والأساس المشترك للمalthusية ومalthusية القرن العشرين هو اعتبار العامل السكاني العامل الرئيس في مشكلات عالم اليوم،

فكلتاها تدعو إلى تحديد النسل سواء عن طريق العفة، كما أراد ذلك مalthus، أم عن طريق حبوب منع الحمل. إن مalthus الذي اعتقد أنه بحث في سعادة الناس وفي خير الناس قد استغلّت آراؤه بأسلوب سلبي ومن بين هذه الآراء دعوته الحكومة البريطانية إلى منع معونة الأسر الفقيرة، فاعتمدت مبرراً لعمليات تعقيم الهنود والسود في أمريكا الشمالية، ومبرراً للحروب والحروب بالنيابة التي عرفها العالم في القرن العشرين

بالأفكار الرجعية والسطحية فهو موقف أيّدولوجي أكثر منه موقفاً علمياً، فليس من المعقول أن مثل ماركس المفكر الكبير لا ينتبه إلى حقيقة كون الموارد محدودة وكون التكاثر البشري الذي يستند إلى الغريزة البشرية غير محدود، وبالتالي فإن أيّ رقعة جغرافية تقع تحت إدارة نظام اقتصادي غير طبقي (اشتراكي) ويزيد فيها السكان بمعدلات سنوية عالية وبصورة مطردة سوف تصل حتماً يوماً ما إلى حالة الاكتظاظ السكاني Over Population، وهذا ما دفع الصين إلى سنّ القوانين التي توجه بتجديد النسل وتخطيط الأسرة.

ولعله من الغرابة أن يرفض ماركس مفهوم الحد الأمثل للسكان Optimem Population، وقد يكون هذا

نرى أن عالمنا المزدهم اليوم يحتاج إلى دعوات العالم والمفكر المفترض "مالكس" (من مalthus وماركس) إلى جمع نخبة الأرض في مجلس أممي تحت رعاية الأمم المتحدة

الرفض من باب اعتبار هذه حالة (طوباوية) لا يمكن أن تحصل على أرض الواقع، وهي قد تكون كذلك، إلا أنه من المعروف أن كثيراً من العلم هو حالة طوباوية

أو تقترب من الطوباوية، ولعل العلم يبدأ دوماً من تصور طوباوي، فحالات السكان، كما توصل علماء الديموغرافية إلى تصنيفها مكانياً هي:

منطقة اكتظاظ سكاني Over Population، ومنطقة خفة أو قلة سكانية Under Population، ومنطقة اعتدال سكاني Optimem Population وهي تمثل الحد الأمثل للسكان تتوازن فيه أعداد السكان بحجم الموارد. فنعتقد أن الأرض لو تمت إدارتها من قبل نظام اشتراكي،

وحتى الوقت الحاضر.

وأخيراً فإن ماركس الذي آمن فقط بعلم الاقتصاد، الذي عدّ الأساس لعلوم التاريخ والجغرافية وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا، والذي عدة موضوع السكان جزءاً من موضوع الاقتصاد، نقول نعم إن للاقتصاد دوره الأساسي في النشاط الإنساني وبناء الحضارة فلا بد أن تنعكس آثاره في العلوم المشار إليها، لكن لهذه العلوم مناهجها، ومفاهيمها الموضوعية العلمية قطعاً تدفعها إلى الإشارة إلى العامل الاقتصادي حيثما يظهر.

واليوم وبعد تراكم الاهتمام بالظواهر السكانية منذ أن أشر هذا الاهتمام مalthus عند نهاية القرن الثامن عشر، نضج منهج علم الديموغرافية Demography واتسعت دائرته ليشكل مع الجغرافية والاقتصاد وعلم الاجتماع والعلوم السياسية والتاريخ وطب المجتمع والهندسة المدنية، ما يطلق عليها الدراسات السكانية Population Studies، وهي دراسات لا يمكن أن يستغني عنها المخطط وصاحب القرار، ولعل من بين ما يقدمه علم الديموغرافية والدراسات السكانية في المجال التطبيقي هي السياسة السكانية Population Policy فلكل دولة ولكل فترة زمنية ما تتطلبه من سياسة سكانية سواء كانت هذه الدولة إشتراكية في إدارتها أم ليبرالية.

وأخيراً فإننا نرى أن عالمنا المزدهم اليوم يحتاج إلى دعوات العالم والمفكر المفترض «مالكس» (من مalthus وماركس) إلى جمع نخبة الأرض في مجلس أممي تحت رعاية الأمم المتحدة، من كبار رجال الدين المسيحيين والمسلمين واليهود وأديان الهندوسية والبوذية والتاوية وغيرها، ومن أشهر

الفلاسفة والمفكرين والكتاب والعلماء وبالتعاون مع ملوك ورؤساء الجمهوريات في العالم لأجل العمل على تأسيس ونشر ثقافة ضبط النسل وتخطيط الأسرة لا خوفاً من الجوع كما حصل عند مalthus، إذ أسرار الثورة الخضراء محفوظة بصندوق مغلق يمكن أن يفتح، وإنما خوفاً على الأرض التي ازدهمت كثيراً وبدأت تتدهور وهي بيت البشر Home of Mankind، فأين ستسكن وتعيش الأجيال القادمة؟

ولا نظن أن الأجيال الجديدة من البشر تستطيع أن يعيش في ظل الدكتاتوريات، لا دكتاتورية البرجوازية والرأسمالية ولا دكتاتورية البروليتاريا، ولا تستطيع أن تصبر على تعسف وظلم سياسي واقتصادي واجتماعي، فالعدالة والحرية والديمقراطية هي مزاج «الإنسان القادم»، فلا يرضى بغيرها حتى لو اقتضى الأمر أن يحطم «الدولة» إذا ما كانت عائفاً أو ما استطاعت أن تسير هذه الحقوق؛ «حقوق الإنسان»، وهي ما نراه مستقبلاً قريباً. يدعونا العالم «مالكس»، نحن أبناء البلدان النامية، أن نستفيد من تجربة الصين فقد استطاعت أن تؤسس لثقافة ضبط النسل وتخطيط الأسرة، ويدعونا أن نبحت عن منهج في الإدارة يوصلنا إلى العدالة الاقتصادية الاجتماعية، أو يقربنا منها، من دون دكتاتورية البروليتاريا.

الهوامش

- ١٦ الساعاتي، حسن ولطفي، عبد الحميد، دراسات في علم السكان، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٧١، ص٣٨-٤٠.
- ١٧ الخفاف، عبد علي والمومني، أحمد محمد عقله، جغرافية السكان، ص٥٢.
- ١٨ المصدر نفسه.
- ١٩ المصدر نفسه.
- ٢٠ المصدر نفسه.
- ٢١ تومسون، دارين، س. ولويس، دايفد، ت.، مشكلات السكان، ترجمة راشد البراوي، المكتبة الانجلومصرية، القاهرة، ١٩٦٩، ص٢٨.
- ٢٢ الساعاتي، حسن ولطفي، عبد الحميد، دراسات في علم السكان، ص٤٠.
- ٢٣ تومسون، دارين، س. ولويس، دايفد، ت.، مشكلات السكان، ص٣١.
- ٢٤ الخفاف، عبد علي والمومني، أحمد محمد عقله، جغرافية السكان، ص٥٦.
- ٢٥ المصدر نفسه.
- ٢٦ المصدر نفسه، ص٦٤.
- ٢٧ المصدر نفسه، ص٧١.
- 28 Encyclopedia Britannica, OP. Cit., P.995-996.
- ٢٩ انجلز، فردريك، مبادئ الشيوعية، دار الفارابي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٧، ص١٦-٢٠.
- ٣٠ المصدر نفسه، ص١٥٢.
- ٣١ فرومون، بيير، السكان والاقتصاد، تعريب منصور الراوي وعبد الجليل الطاهر، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٦٨، ص٧٦.
- ٣٢ الخفاف، عبد علي والريحاني، عبد فخور، جغرافية السكان، ص٢٦.
- ٣٣ الخفاف، عبد علي والمومني، أحمد محمد عقله، جغرافية السكان، ص١٠٠ وما بعدها.

- * أستاذ متمرس، متخصص في الجغرافية والدراسات السكانية، جامعة الكوفة. عمل في مجموعة من الجامعات العراقية والعربية منها جامعة وهران (الجزائر)، وجامعة عدن (اليمن)، وجامعة السليمانية والبصرة والكوفة والقادسية. شغل منصب عميد كلية الآداب ٢٠٠٣-٢٠٠٨ في جامعة الكوفة، وشغل منصب رئيساً لأقسام الجغرافية في الجامعات ١٩٨٥-٢٠٠٣. له ٣٨ كتاباً منها ٧ كتب منهجية يعتمد عليها طلبة الجامعات العراقية. نشر عدداً من البحوث والدراسات في دوريات عراقية وعربية.
- 1 Encyclopedia Britannica Vol.14 – Encyclopedia, Ltd.- Great Britain – p.744- 745.
- 2 Ibid.
- 3 Ibid.
- ٤ الخفاف، عبد علي والمومني، أحمد محمد عقله، جغرافية السكان: دراسة في أدب السكان وديموغرافية الوطن العربي، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠١، ص٤٦.
- ٥ الخفاف، عبد علي والريحاني، عبد فخور، جغرافية السكان، مطبعة جامعة البصرة، البصرة، ١٩٨٦، ص٢٦.
- 6 Encyclopedia Britannica, OP. Cit., P.745.
- 7 Thomlinson, R., (1965) Population Dynamics, (New York: Random House, 1965), P.23.
- 8 Ibid.
- 9 Encyclopedia Britannica, OP. Cit., P.745.
- ١٠ الخفاف، عبد علي والمومني، أحمد محمد عقله، جغرافية السكان، ص٤٩.
- ١١ المصدر نفسه.
- ١٢ المصدر نفسه، ص٥٠.
- ١٣ المصدر نفسه، ص٥١.
- ١٤ المصدر نفسه، ص٥١.
- ١٥ المصدر نفسه، ص٥١.